من الوعي إلى الفعل

مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي

د. عماد عبد اللطيف

قسم اللغة العربية – كلية الآداب- جامعة القاهرة

الملخـــص

هذا البحث جزء من إطار نظري يضع أساسًا لمشروع بلاغي عربي يستهدف مقاومة الخطابات السلطوية بواسطة إضعاف الأثر الذي تُحدثه في المخاطَب، وتوليد استجابات بلاغية مضادة له. يقدم البحث مراجعة لبعض أهم المقاربات المعرفية، التي ظهرت تقريبا في العقدين الأخيرين، والتي استهدفت -بطرائق مختلفة- مقاومة سلطة الخطاب والخطابات السلطوية. هدف البحث التعريف بهذه المقاربات؛ وهي التحليل النقدي للخطاب، والبلاغة النقدية، والكلام المضاد، وبلاغة المخاطب. يقوم البحث بعرض الأسس النظرية التي تنطلق منها هذه المقاربات، ومبادئ الممارسة التي تقترحها، وأهم الكتابات التي تمثلها؛ مع التركيز على طرائق تحديدها للخطاب السلطوي، والإجراءات التي تقترحها لمقاومته. ويناقش البحث في خاتمته إمكانية الإفادة من هذه المقاربات في إطار مشروع تكاملي لمقاومة سلطة الخطاب.

Abstract

This study is part of an Arabic rhetorical approach that aims at resisting the discourse of power through reinforcing the audience response against it. The study reviews four contemporary approaches: 1) Critical Discourse Analysis; 2) Critical Rhetoric; 3) Speaking back; 4) Rhetoric of Audience. It examines the theoretical background of each approach, its procedures and practices. In conclusion, the study examines the possibility of establishing an integrated approach that could challenge the discourse of power.

من الوعي إلى الفعل

مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي

د. عماد عبد اللطيف

مقدمة

هذا البحث جزء من إطار نظري يضع أساسًا لمشروع بلاغي عربي يستهدف مقاومة الخطابات السلطوية بواسطة إضعاف الأثر الذي تُحدثه في المخاطَب، وتوليد استجابات بلاغية مضادة له. يقدم البحث مراجعة للمقاربات المعرفية، التي ظهرت تقريباً في العقدين الأخيرين، والتي استهدفت -بطرائق مختلفة- مقاومة سلطة الخطاب والخطابات السلطوية. هدف البحث التعريف بهذه المقاربات، وتحديد الفروق فيما بينها. يتضمن التعريف عرض الأسس النظرية التي تنطلق منها، ومبادئ الممارسة التي تقترحها، وأهم الكتابات التي تمثلها، مع التركيز على طرائق تحديدها للخطاب السلطوي، والإجراءات التي تقترحها لمقاومته. تختلف هذه المقاربات في الحقول المعرفية التي تنطلق منها، وفي تحديدها لطبيعة الخطاب السلطوي وآلية عمله، وفي الإجراءات المستخدمة في معالجته، كما تتباين من حيث طبيعة الظواهر التي تُخضعها للدراسة، والطرائق التي تقترحها لمقاومة الخطاب السلطوي. ويقوم البحث بالمقارنة بين هذه المقاربات استناداً إلى هذه الفروق.

يقوم البحث على بعض المسلمات التي تخص طبيعة السلطة والخطاب. ففيما يتعلق بمفهوم السلطة وتجلياتها وأنواعها يتبنى البحث مسلمةً مؤداها أن السلطة تتحدد وفقا لغايتها ونتيجتها وليس وفقا لطبيعتها وجوهرها. ومن ثمّ، فإننا نتبنى مفهوما وظيفيا للسلطة، يرى أن السلطة هي ممارسة تؤدي إلى سيطرة وهيمنة حائزها على مفتقدها، ويلازمها من ثم الفصل والتمييز. وبناء على ذلك، فإن الخطاب السلطوي هو الخطاب الذي ينجز ويدعم سيطرة حائزي هذا الخطاب على مستهلكيه. والمفهوم السابق للسلطة متأثر إلى درجة كبيرة بطرح فان دايك (٢٠٠١)، الذي يعرِّف السلطة استنادا إلى معيار السيطرة. فكل ما يؤدي إلى السيطرة، ماديةً كانت أم رمزية، فهو سلطة. ويرتبط بذلك أهمية التمييز بين السلطة المادية الخالصة وسلطة الخطاب. ولا يتجلى هذا التمييز في طبيعة أدوات ممارسة السلطة؛ أعني القسر في مقابل الإقناع أو التضليل، فحسب، بل يتجلى كذلك في طبيعة السيطرة الناتجة عن كلٍ منها ومداها الزمني وإمكانية مقاومتها، وطبيعة ارتباطها بحائزها، وطبيعة العلاقة بين حائزها والخاضع لها...إلخ[1]. وعلى الرغم من ذلك، فإن لمعظم أشكال السلطات المادية تجليات خطابية، كما أن سلطة الخطاب قد تكون متبوعة أو مصحوبة أو مسبوقة أو متزامنة مع السلطة المادية. فهما، رغم تمايزهما، مترابطان بأكثر من وجه، ويندر الاقتصار على استخدام إحداهما في صورتها النقية لمدى زمني طويل.

لقد شهد العصر الحديث تراجعا نسبيا في استخدام السلطة المادية، خاصة مع انتشار وسائل الإعلام والوسائط التربوية التي يسرت إلى حد ما سبل تحقيق الهيمنة والسيطرة دون حاجة شديدة إلى القسر. وسوف تكون هذه الدراسة مقصورة على الأطروحات التي قُدمت لمقاومة سلطة الخطاب. ولكن، لأن سلطة الخطاب لا تُمارس في فضاء متخيل، وإنما في سياق واقعي متعين فإن مقاومة الخطاب السلطوي لن تصبح فاعلة إذا ما أُغفلت الترابطات بين الخطاب السلطوي المستهدف مقاومته والسياق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي...الذي يتيح له ممارسة سلطويته. ومن ثم

فإن كل طموح لمقاومة الخطاب السلطوي هو، في الوقت ذاته، طموح لإبطال السلطة المادية المدعمة للخطاب السلطوي، والتي تؤسس سياق إنتاج هذا الخطاب وتلقيه.

يرتبط بالتمييز بين السلطة المادية وسلطة الخطاب تمييز آخر بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب. ومن نتائج هذا التمييز أن الخطاب يمكن أن يمثل سلطة في حد ذاته، وأن خطاب السلطة ربما لا يكون –وذلك في أحوال نادرة– سلطويا. وذلك على خلاف مع أطروحة بورديو عن سلطة الخطاب[٢].

وأخيراً فإن البحث يستند إلى مسلمة تخص تعريف مصطلح 'الخطاب'. فالبحث يستخدم مصطلح الخطاب ليشير به إلى النص أو الكلام في حال الاستعمال الفعلي. وهو ما يعني أن النصوص التي تعتمد لغة صناعية ليست موضع نظر. وأن الاهتمام ينحصر فحسب في تحليل ودراسة نصوص وكلام طبيعيين، ينتجان ويستهلكان في واقع استخدام فعلي. غير أن هذا التقييد للمادة يواجهه انفتاح من زاوية أخرى؛ فالمقاربات التي يعرضها هذا البحث تتعامل مع الخطاب بوصفه جامعا لإطار واسع من الأنظمة السيميوطيقية، التي تشمل، بالإضافة إلى اللغة، الصورة والحركة واللون والصوت..إلخ.

يدرس البحث أربع مقاربات: هي: -١ التحليل النقدي للخطاب -٢ البلاغة النقدية -٣ الكلام المضاد -٤ بلاغة المخاطَب. تنتمي هذه المقاربات إلى حقلين معرفيين هما البلاغة وتحليل الخطاب. وفي حين تُعد مقاربتا التحليل النقدي للخطاب والبلاغة النقدية من التوجهات المعرفية المستقرة وواسعة الانتشار فإن المقاربتين الأخريين لا تزالان في مرحلة التشكل، وهما أقرب إلى الأعمال الفردية.

أولاً: التحليل النقدي للخطاب

منذ تسعينات القرن العشرين ظهر التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis بوصفه توجها جديدا في تحليل الخطاب في الأوساط الأكاديمية في أوروبا الغربية. ومع نهاية القرن كان يمثل أحد أكثر توجهات تحليل الخطاب استقطابا للباحثين (بلومارت وبولكان(Blommart and Bulcaen2000، وقد وصفه ويدوسن H.G.Widdowson في عام ٢٠٠٤ بأنه أصبح حقلاً مكتظًا بالنشاط.

يحدد فان دايك[٣]، موضوع التحليل النقدي للخطاب بأنه دراسة الكيفية التي يقوم بها النص والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها. وأن المحلل النقدي للخطاب يسعى إلى فهم اللامساواة الاجتماعية والكشف عنها تمهيدا لمقاومتها. ومن ثمّ فإن التحليل النقدي للخطاب له توجه عام يستهدف، وفقا لتيتشر وآخرين[٤]، توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبنى الاجتماعية، تلك التأثيرات التي لا يعيها البشر غالبا. ويقدم فايركلوف تفصيلاً أكبر لأهداف التحليل النقدي للخطاب. ففي مقدمة كتابه التأسيسي "اللغة والسلطة" الصادر في ١٩٨٩، يحدد أهداف الكتاب في هدفين؛ الأول هو المساعدة في تصحيح الإبخاس الشائع لأهمية اللغة في إنتاج علاقات السلطة وترسيخها، أما الثاني فهو المساعدة في زيادة الوعي بالكيفية التي تسهم بها اللغة في إنجاز هيمنة بعض البشر على بعض، لأن الوعي هو الخطوة الأولى نحو التحرر. هذا الوعي يمكّن من مساعدة البشر على إدراك المدى الذي تعتمد فيه لغتهم الخاصة على المسلمات الشائعة، والطرائق التي يمكن لعلاقات السلطة أن تشكّل بواسطتها هذه المسلمات الشائعة. ويرى فايركلوف أن الوعي الذي يحققه الاطلاع على نماذج من استخدام اللغة أداةً للقهر والهيمنة يمكن أن يكون حافزا على المقاومة والتغيير. وهو، وإن كان يثق في قدرة البشر على الخلاص من الهيمنة التي يمارسها بشر آخرون، فإنه يربط هذه القدرة بتطور وعي نقدي بهذه الهيمنة وأوضاعها. ويتحقق الوعي عن طريق التحليل النقدي للظواهر اللغوية والسيميوطيقية للخطاب؛ مثل المفردات والنحو والعلاقات النصية، واللون والصورة..إلخ. ومن ثم ينخرط المحللون

النقديون للخطاب في تحليلات تفصيلية لهذه العناصر، ويقومون بشكل مستمر بتأويلات تربطها بعلاقات السلطة في المجتمع.

فيما عدا الغاية التي يسعى التحليل النقدي للخطاب لتحقيقها فإن كل شيء فيه مبنيٌّ على التعدد، بدءاً من التسمية التي تُطلق عليه. فبينما يطلق عليه بلومارت وبولكان (٢٠٠٠) اسم "مدرسة School"، يرفض فان دايك هذا الاسم الذي يصر بلومارت عليه ويحاول التعليل له في كتابه الصادر في عام (٢٠٠٥)[٥]. ويذهب فان دايك (٢٠٠١) إلى أن التحليل النقدي للخطاب ليس توجها أو مدرسة أو تخصصا يُضاف إلى المقاربات الأخرى في تحليل الخطاب، بل يراه أقرب إلى هيئة أو منظور للتحليل والتنظير والتطبيق عبر حقل تحليل الخطاب بأكمله. وبينما يرى تيتشر وآخرون أن التحليل النقدي للخطاب يمثل منهجا في تحليل الخطاب، تذهب ليلي شاولياركي ونورمان فايركلوف[٦] إلى أنه يمثل منهجا ونظرية في الآن نفسه.

يصدق هذا التعدد على الأصول النظرية التي يستند إليها ممارسو التحليل النقدي للخطاب، والتي تختلف وفقا للتوجهات أو المناهج المتعددة التي تعمل في إطاره. هذه الأصول النظرية تشمل وفقا لفايركلوف وفوداك (١٩٩٧)، "الماركسية الغربية" وتضم أعمال أنطونيو غرامشي؛ خاصة تصوره للهيمنة، وأعمال مدرسة فرانكفورت، التي قدمت ما يُعرف ب"النظرية النقدية"، خاصة التطويرات التي أدخلها عليها يورغن هابرماس، وأعمال لوي ألتوسير خاصة نظريته حول الإيديولوجيا. كما تضم هذه الأصول مقاربة فوكوه في تحليل الخطاب، وكتابات باختين؛ خاصة تصوراته لتعدد الأصوات، ومفهومه للتناص الذي طورته جوليا كريستيفا فيما بعد. وأخيرا، كتابات فولوسينوف التي تقدم ما يعتبره المؤلفان أول نظرية لغوية للإيديولوجيا.

يرى فايركلوف وفوداك أن هذه الأصول النظرية يشترك فيها كل ممارسي التحليل النقدي للخطاب. غير أن فيليب ويورغنسن (٢٠٠٢) Marianne Jørgenson and Louise Phillips يذهبان إلى أن هذه الأصول لا يشترك فيها جميع ممارسي التحليل النقدي للخطاب، ويضربان مثالا على ذلك بفان دايك الذي يختلف مع تصور فوكوه للخطاب على أنه مُنتِج productive. ويميل إلى تصور معرفي اجتماعي للخطاب.

أما فان دايك نفسه فهو لا يحيل، في عرضه للأصول النظرية للتحليل النقدي للخطاب، إلى مدارس فكرية أو إلى كتابات مؤلف ما، أو إلى مناهج معينة؛ بل يحيل إلى مفاهيم مثل السلطة، الهيمنة، السيطرة، الإيديولوجيا، الطبقة، العرق، النوع، التمييز، المصالح، إعادة الإنتاج، المؤسسات، البنية الاجتماعية، النظام الاجتماعي. ويرى أن هذه المفاهيم بتصوراتها النظرية هي الأصول النظرية للتحليل النقدي للخطاب. والملاحظ أن بعض هذه المفاهيم، مثل النوع والعرق والتمييز والهيمنة، هي نفسها موضوع للتحليل النقدي للخطاب. وهو ما يعني أن العلاقة بينهما مركبة، حيث تمثل المفاهيم السابقة أساسا نظريا للعلم وموضوعا له في الوقت ذاته.

يرى تيتشر وآخرون (٢٠٠٠) أن الأصول النظرية للتحليل النقدي للخطاب تنقسم إلى أصول عامة يشترك فيها كل ممارسيه؛ وتضم نظرية لويس ألتوسير حول الإيديولوجيا، ونظرية ميخائيل باختين حول الأنواع Genre. والتقاليد الفلسفية لأنطونيو غرامشي ومدرسة فرانكفورت النقدية. أما الأصول الخاصة فهي تختلف بحسب كل ممارسة، فبينما يرتبط فايركلوف على سبيل المثال بميشال فوكوه وبنظرية ميشال هاليداي حول " اللغويات الوظيفية النسقية"، تتأثر روث فوداك وفان دايك بالنماذج المعرفية لتنظيم النص.

يؤدي التباين في الأسس النظرية بين التوجهات المختلفة للتحليل النقدي للخطاب إلى تباينات في تحديد طبيعة العلاقة بين الخطاب والمؤسسة الاجتماعية، وفي فهم الكيفية التي ينتج بها الخطابُ السلطةَ ويمارسها ويصونها. ومع ذلك، فإن هذه التوجهات تشترك في المنطلق اللغوي لتحليلاتها. وذلك استنادا إلى أن اللغة مجلىً للسلطة. وربما كان هذا الفهم العام للعلاقة

بين السلطة والخطاب جزءًا من المشترك العام بين ممارسي التحليل النقدي للخطاب. وهو يمارس، في الوقت ذاته، توجيها لأهداف ممارستهم الأكاديمية، التي تلخصها فوداك[٧] في "تحليل العلاقات البنيوية الكامنة والظاهرة للهيمنة والتمييز والسلطة والتحكم كما تظهر في اللغة في حال التعبير بواسطتها. وبصياغة أخرى، يهدف التحليل النقدي للخطاب إلى الفحص النقدي للامساواة الاجتماعية كما يُعبر عنها ويؤسسها ويسن لها قوانينها الاستخدام اللغوي". وعبارات فوداك لا تحدد هدف التحليل النقدي للخطاب فحسب، بل تنطوي على إدراك للعلاقة المتساندة، أو بالأحرى علاقة الإنتاج المتبادل، بين السلطة والخطاب. وتنطوي كذلك على تحديد أولي للمادة التي يدرسها التحليل النقدي للخطاب ممثّلةً في اللغة، وإن تجاوز كثير من التحليلات النقدية للخطاب اللغةَ إلى دراسة أنماط سيميوطيقية أخرى.

رصد فايركلوف وفوداك(١٩٩٧) ثماني توجهات مختلفة للتحليل النقدي للخطاب هي: -١ التوجه الفرنسي في تحليل الخطاب، خاصة كتابات ميشيل بيشوه، -٢ اللغويات النقدية ممثلة في كتابات فاولر وكريس وهودج، -٣ التحول السوسيوثقافي وتحول الخطاب، ممثلة في أعمال فايركلوف، -٤ السيميوطيقا الاجتماعية ممثلة في كتابات كريس وآخرون، -٥ الدراسات السوسيومعرفية، وتضم معظم كتابات فان دايك، -٦ منهج التحليل التاريخي للخطاب، ممثلاً في كتابات جماعة فيينا المتحلقة حول روث فوداك، -٧تحليل القراءة، ممثلاً في كتابات أوتز ماس، -٨ مدرسة دويسبرج، ممثلة في كتابات جاجر وجاجر. وكما لاحظ فيليب و يورغنسن فإن أربعة توجهات فحسب من بين هذه التوجهات هي التي تقدم نفسها بوصفها منتمية إلى التحليل النقدي للخطاب؛ وهي السيميوطيقا الاجتماعية، والدراسات السوسيومعرفية ومنهج التحليل التاريخي للخطاب، وتوجه فايركلوف. وعلى الرغم من هذا التعدد فإن توجه فايركلوف يُنظر إليه غالبا بوصفه الأكثر وضوحاً وطموحاً من بين التوجهات السابقة (بلومارت وبولكان٢٠٠٠).

لا يُعد الاختلاف في الأسس النظرية التباين الوحيد بين هذه التوجهات، إذ ثمة اختلاف في إجراءات التحليل، وآخر في الظواهر المخضعة للتحليل. فعلى الرغم من أن هذه التوجهات تتفق في اتخاذ اللغة موضوعا لدراستها، فإنها تختلف، إلى حد ما، في تحديدها للظواهر التي يراها كل توجه جديرة بالدرس (مايز 2002). وهو ما قد يرجع إلى الاختلاف في التقييم النسبي لقدرة كل ظاهرة على الإفصاح والكشف عن السلطة التي يمثلها منتج اللغة ويبتغيها.

ركز العرض السابق على الطبيعة المتشظية للتحليل النقدي للخطاب. وقد قصدت ذلك لعدة أمور هي؛ أولا: توضيح تنوع هذا التوجه في تحليل الخطاب وثرائه. ثانيا: إظهار كيف أن الأفكار والتوجهات ذات المنطلقات المختلفة يمكن أن تتعايش وتتعاون فيما بينها لتكون إطارا عاما يشجع من داخله على حرية الاختلاف. ثالثا: التأكيد على الطبيعة عبر النوعية لهذا الحقل المعرفي. فالتحليل النقدي للخطاب بحسب فان دايك لا يمكن إلا أن يكون عبر نوعي. ويؤكد شيلتون (٢٠٠٥) هذه الخاصية، وإن أكد في الوقت ذاته على عدم نجاح ممارسيه في أن يقدموا معرفة عبر نوعية بشكل واضح. رابعاً، وأخيراً، الكشف عن بعض الصعوبات التي يواجهها بعض من يحاولون الانضمام إلى جماعة المحللين النقديين للخطاب، وهي جزء من صعوبات أكبر وأعمق لا يتسع هذا السياق للتعرض لها[٨].

ربما كان مشروع التحليل النقدي للخطاب هو الأهم على الساحة الأكاديمية من بين مشاريع مقاومة الخطابات السلطوية. فقد استطاع اجتذاب عدد كبير من الباحثين من كل أرجاء العالم. وربما يرجع ذلك، إضافة إلى قوة الجذب التي ينطوي عليها نبل الغاية التي يعلن أنها مقصده، والتي تداعب حلما رومانسيا لدى كثير من البشر يتمثل في تقوية المستضعفين وإضعاف المتجبرين- أقول: ربما يرجع، إضافة إلى

ذلك، إلى قدرته على تقديم نفسه بوصفه ممارسة أكاديمية بالأساس، يستطيع الباحثون، الذين ينتمون أساسا إلى حقل الدراسات اللغوية، مناوشة الواقع بمشكلاته وتحدياته انطلاقا منها. وربما تكمن إحدى نقاط الضعف الحقيقية في التحليل النقدي للخطاب بوصفه ممارسةً مقاومةً للخطاب في إمكانية تحوله إلى مجرد ممارسة أكاديمية، أي عزله بشكل أو بآخر عن الواقع الاجتماعي. يعزز هذا التخوف أمور؛ أولها: إنه لم يتطور التوجه البيداغوجي الموازي للتحليل النقدي للخطاب بالوتيرة نفسها التي تطورت بها إجراءات التحليل التي يستخدمها، والأسس النظرية التي يتأسس عليها. وثانيها: إن اللغة التي يكتب بها رواد التحليل النقدي للخطاب—من وجهة نظر الباحث- ربما تزداد تعقيدا بمرور الوقت. ولم نعد نقرأ عبارات من قبيل "لقد بذلت كل جهدي لأيسر الإفادة من هذا الكتاب"[٩] انطلاقا من الطموح بأن يصبح كتاب المؤلف سهل التلقي. وثالثها: أن التحليل النقدي للخطاب ربما لم يتجاوز طموحه عتبة الوعي بالسلطة التي يمارسها أو ينتجها أو يُجليها الخطاب. هذه العتبة رغم أهميتها القصوى يواجهها تحديات ثلاثة؛ الأول: إأنها محصورة بدرجة أساسية في السياق الأكاديمي. والثاني: إنها غالبا ما تكون قوة مقاومة بالقوة وليست بالفعل، إذ إن مرحلة ما بعد تعرية الخطاب السلطوي والوعي به لا تكاد تدرس في التحليل النقدي للخطاب. لكن التحدي الأهم، هو أن هذه التعرية تستند إلى قدرات تأويلية بالأساس، أي أن ثمة طابعًا شبه ذاتي يطبع النتائج التي يتوصل لها المحللون النقديون للخطاب. وأظن أن هذا الطابع راجع إلى إغفال التلقي الفعلي للخطابات من قبل متلق متعيّن، والاكتفاء بدراسة ما يمكن أن تعنيه هذه الخطابات أو تفعله أو تكونه أو تحيل إليه في فضاء تأويلي لا تاريخي. وربما أدى هذا الإغفال إلى التشكك في النتائج التي يمكن أن يتوصل إليها المحللون النقديون للخطاب (ويدوسون ٢٠٠٤).

يمكن القول، بناء على ما سبق، إن التحليل النقدي للخطاب، بوصفه مقاربة مقاومة للخطاب السلطوي، يوفر ذخيرة تنظيرية هائلة تخص العلاقة بين الخطاب والسلطة، والمفاهيم الأساسية التي تتحرك حولهما؛ مثل مفاهيم الإيديولوجيا، والهيمنة، والتاريخ، والطبقة، والنوع،..إلخ. كما يوفر تراثاً متصلاً من التحليلات التي تربط اللغوي بالاجتماعي في سياقات تاريخية واجتماعية متباينة. كما يقدم معرفة عميقة بالكيفيات التي يمكن أن تنطوي بها ظواهر لغوية بعينها على السلطة أو تنتجها أو تدعمها. ومن ثم، فإن مقاربة التحليل النقدي للخطاب، وعلى الرغم من أنها تدور، إلى حد كبير، في فضاء تأويلي، تعد رافدا على درجة عظيمة من الأهمية لأي توجه يستهدف المساهمة في مقاومة خطاب سلطوي.

ثانيا: البلاغة النقدية

تعد البلاغة النقدية Critical Rhetoric بحسب يازنسكي ٢٠٠١ أحد أهم اتجاهين بلاغيين في البلاغة الأمريكية المعاصرة. و قد ارتبطت بكتابات بلاغي أمريكي هو ريمي مكرو.

تنقل البلاغة النقدية مركز الاهتمام، في إطار الدراسات البلاغية، من إنشاء الخطاب إلى نقده؛ حيث إن مهمتها تكمن في الانخراط في نقد مستمر ثابت[١٠]. هذا النقد يُمارس بشكل أساس على الخطابات العامة، مثل المقالات الصحفية والبرامج الإذاعية والتليفزيونية..إلخ، التي يرى مكرو أنها وإن لم تكن في حد ذاتها نصوصا راقية فإنها تمارس تأثيرا كبيرا، خاصة في تشكيل الثقافات الشعبية.

يذكر مكرو أن "المهمة الداخلية للبلاغة النقدية" تتمثل في "إعادة خلق أو إنشاء حجاج يحدد التكامل بين السلطة والمعرفة، ويصور بدقة دور السلطة /المعرفة في تشكيل الممارسات الاجتماعية"[١١]. هذه الوظيفة تتحقق عن طريق عمليتين متصلتين؛ الأولى: مساءلة الهيمنة، والثانية: مساءلة التحرر. والعمليتان تستهدفان بدورهما تعرية وكشف الطرائق التي يساعد الخطاب من خلالها

في إنتاج القهر الاجتماعي و/أو السياسي، ومن ثم تأسيس متطلبات التحرر منه. ويرى يازنسكي أنه على الرغم من اتصال العمليتين وتكاملهما فإنهما تتمايزان بحسب فهمهما للسلطة؛ فمساءلة الهيمنة تفهم السلطة على أنها قمعية، تقوم بتقليص ممكنات الفعل الإنساني، أما مساءلة الحرية فتفهم السلطة على أنها منتِجة، أي أنها قوى إيجابية تؤسس علاقات اجتماعية وترسخها.

إن خطاب التحرر وخطاب الهيمنة لا يشكلان خطابين متمايزين؛ بل هما بالأحرى عمليتان تخصان خطابا واحدا. ويمكن أن نعيد تحديد الفرق بين عمليتي مساءلة الهيمنة ومساءلة التحرر في الخطاب السلطوي. فالعملية الأولى تركز على ما تم إقصاؤه وقمعه من خطابات بديلة. أما الثانية فتدرس ما أنتجته السلطة من خطابات. ومن ثم فإن مساءلة التحرر لا تُعنى بالتحرر (الخطابي) بوصفه بديلا عن الهيمنة (الخطابية)؛ حيث إن خطاب التحرر ليس إلا خطابا سلطويا يمارس هيمنة وقهرا..إلخ. وأي خطاب يتعارض معه أو يناقضه سوف يكون هو أيضا خطابا سلطويا. وربما نتج هذا الفهم لصيرورة الخطابات من مفهوم الإرجاء التفكيكي، خاصة أن المعنى هو المبتغى لدى البلاغي النقدي. وفي الواقع يوجد تناقض بين الأساس التفكيكي الذي فُهمت الخطابات السلطوية وفقا له، والذي يُسقط السلطوية على كل الخطابات، وسعي مكرو إلى الوصول إلى "معنىً" محدد؛ حيث يرى أن "البلاغة النقدية تُمكّن المرء من خلق معنى من خليط الخطابات التي تميز تجربتنا ما بعد الحداثية". فالمعنى الواحد الذي يسعى إليه مكرو ينطوي على ثبات واستمرار، وهو ما يتناقض مع تعدد وتصارع المعاني لدى التفكيكيين. وربما ينضم ذلك إلى عناصر أخرى للتوتر بين الحداثي وما بعد الحداثي الذي لاحظه هاريمان (١٩٩١) في مشروع مكرو.

لم يحدد مكرو المهمة الخارجية التي يمكن أن توازي المهمة الداخلية للبلاغة النقدية، أو تتقاطع معها، أو تكملها. ولكننا يمكن أن نخمن أنها ترتبط بما أشار إليه يازنسكي من أن البلاغة النقدية هدفها تقديم توجه ما، أو منظور ما، يكيِّف تفاعل الناقد مع عالمه. وفي حين أن المهمة الداخلية، بغض النظر عن كونها مشتركة بين عدد من المعارف، يمكن أن تكون متصلة بالممارسة المعرفية الخاصة بالبلاغي الناقد، بحسب تسمية مكرو، فإن المهمة الثانية عامة إلى حد الإطلاق؛ حيث إن أي توجه أو منظور معرفي يتبناه أي إنسان يكيِّف تفاعله مع عالمه، دون تخصيص. وهذه الفاعلية غير موقوفة على منظور بعينه أو تخصص أو متخصص بذاته. وربما كان الفرق يكمن في درجة الوعي بالعلاقة بين المنظور المعرفي/السياسي/الأخلاقي..المتبنّى وطبيعة التفاعل مع العالم.

تعددت السياقات التي يؤكد فيها مكرو أن مشروع البلاغة النقدية لا يقدم منهجا أو إجراءات للبحث، وأنه لا يتعهد بتقديم نظام محدد لبروتوكولات البحث أو إستراتيجيات القراءة. وتتحرك ممارسة البلاغة النقدية تبعا لمقتضيات البحث Inquiry. وتنظمها مبادئ للممارسة Principles of practice. ووظيفة مبادئ الممارسة تنحصر في تحديد شروط تكيف البلاغة مع السياق ما بعد الحداثي الذي يؤدي فيه البلاغيُّ نقده.

يذكر تشارلاند (١٩٩١)، أن استناد مكرو إلى مشروع فوكوه في تحليل الخطاب- جعله يهمل عنصرا مركزيا في البلاغة هو الاهتمام بالمخاطَب. فقد ركز مشروع فوكوه، وتبعه في ذلك مكرو، على إنتاج الخطاب وتأثيراته، مهملا لحظة تلقيه وتأويله بواسطة فاعل متعين أخلاقيا وتاريخيا. والملاحظة الأخيرة تبدو بالغة الأهمية لأنها تفتح الباب أمام التساؤل حول خصوصية مشروع البلاغة النقدية من ناحية، و حول مشروعية اندراجه في إطار الدراسات البلاغية من ناحية أخرى. فالمراجع للأهداف التي يسعى مشروع البلاغة النقدية إلى إنجازها سواء أكانت عامة أم خاصة يكتشف أنها هي ذاتها أهداف توجهات مثل تحليل فوكوه للخطاب. وفي ظل غياب تحديد لموضوعات خاصة بمشروع البلاغة النقدية، أو مادة خاصة بها، أو مقاربات أو

مناهج أو أدوات خاصة للتحليل يصبح السؤال حول مبرر إعلانها مشروعا معرفيا جديدا أمرًا ضروريًا. لقد رفض مكرو إعادة موضعة البلاغة، واختار تحويلها إلى ممارسة جديدة. فقد ذكر أنه للهرب من تأثير أفلاطون "فإن المهمة لا تقتضي إعادة موضعة البلاغة، بل إعلانها ممارسة نقدية" مكرو(١٢). إن إعادة الموضعة تتضمن الاحتفاظ بالخصائص الأساسية للمُمَوضَع. ويؤدي افتقاد هذه الخصائص إلى تحويل البلاغة إلى ممارسة معرفية أخرى. وأظن أن مشروع البلاغة النقدية كان محاولة لتحويل البلاغة إلى تحليل فوكوهي للخطاب. وهو أمر نبيل وأخلاقي، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار طبيعة الدراسات البلاغية الأمريكية، والتي تُعنى بالأساس بمد المؤسسات المسيطرة بما تحتاجه من أدوات بلاغية لإنجاز الهيمنة والسيطرة على مخاطبيهم، لكنه لا يترك للبلاغي النقدي أرضية خاصة يقف عليها. ويمكن القول إن ممارسة البلاغي النقدي هي التي سوف تحدد أي أرض يقف عليها، وأي تسمية يجدر بنا أن نطلقها على ممارسته. لكن معظم المشاركين في الجدل النظري حول البلاغة النقدية، بمن فيهم مكرو، لم ينخرطوا في ممارسة تطبيقية لها.

لقد وضع مكرو أهدافا اجتماعية طموحة تتعلق بمقاومة الهيمنة التي يمكن أن يمارسها تحالف المعرفة والسلطة على المجتمع. لكن هاريمان (١٩٩١) أوضح أن هناك تناقضا جذرياً بين هذه الأهداف وطريقة عمل البلاغة النقدية، المعنية فحسب بشحذ القدرة على التأويل. وهو ما يجعل من خطاب البلاغة النقدية، خطابا أكاديميا بشكل خالص. يجرد بعض الخطابات من سلطويتها، ليحوزها هو. وليست هذه هي العقبة الوحيدة التي تحول بين الممارسة والطموح. فقد ذهب مكرو إلى أن مقاومة السلطة يمكن أن تتم من خلال إنتاج معانٍ متعددة للخطابات؛ لكن المعاني المتعددة لا تؤدي إلى تجريد السلطة من ممارسها. فتعدد المعنى لا يقوض سلطوية الخطاب. على العكس من ذلك، يمكن القول إن سلطوية خطاب ما قد تُدعّم بواسطة قدرته على خلق خليط من المعاني التي يسعى للتمويه بها. وربما كان ذلك وراء صفة الغموض التي تميز بعض أكثر الخطابات سلطوية؛ أعني الخطاب السياسي. إن تعدد المعنى لا يمكن أن يكون آلية لمواجهة الخطاب السلطوي؛ لأن الخطاب لا يمارس سلطويته بواسطة عملية إنتاج المعنى فحسب، بل يقوم بإنجاز الهيمنة والسيطرة والتمييز والمقت..إلخ. فالمعنى ليس حاصل الخطاب، وليس أهم ما يتكشف عنه، أو يسعى إليه. وأخيرا، فإن مشروع البلاغة النقدية، إضافة إلى الانتقادات السابقة، لم يُطور وعياً خاصاً بالعلاقة بين الخطاب والسلطة، ولم يقدم أدوات أو إجراءات يمكن الركون إليها في تحليل خطاب ما، ولم يقدم أدوات للتمييز بين السلطوي وغير السلطوي من الخطابات. وهو ما يؤدي، بالتأكيد، إلى صعوبة الإفادة منه في سياق مقاومة خطاب سلطوي.

ثالثاً: الكلام المضاد

قدمت كاثرين جيلبر (Gelber 2000) مخططا يمكّن هؤلاء الذين يتعرضون لخطاب مقت Hate Speech- وهو المصطلح الذي يطلق على الخطاب الذي يمارس تمييزا عنصريا أو عرقيا أو جنسيا- من أن يقدموا خطابا مضادا يقاوم اللامساواة التي يحاول كلام المقت ترسيخها، ويقوض حالة الصمت التي يبغي كلام المقت فرضها، وأخيرا يقيم توازنا في القوى عن طريق منح هؤلاء الفاقدين للسلطة (الذين يمارَس التمييز ضدهم) القوة على الكلام.

يقوم الإطار النظري لمخطط جيلبر على ثلاثة محاور. المحور الأول: يستهدف دراسة الآثار التي يُحدثها كلام المقت. وقد استخدمت جيلبر في هذا المحور أطروحة أوستن حول القدرة الإنجازية للأفعال اللغوية، التي قدمها في كتابه الرائد "كيف تصنع أشياء بالكلمات". المحور الثاني: يستهدف تعيين كلام المقت، ومن ثمّ، تحديد خصائص الخطاب البديل. ووظفت جيلبر في هذا المحور جزءاً من نظرية هابرماس في

الفعل التواصلي، هو "دعاوى الصدق" Validity Claims. المحور الثالث: يستهدف توفير إطار تشريعي يمكن في سياقه تقديم خطاب مضاد لكلام المقت. واستعانت جيلبر في هذا المحور بنظرية الممكنات C-pabilities Theory التي توفر الكيفيات التي يمكن بها تطويع المنافع بهدف تحسين شروط الحياة.

سوف نركز في هذا العرض على الأدوات التي اقترحتها لتعيين أحد أكثر أشكال الخطابات السلطوية شيوعا؛ أعني كلام المقت. وقد اعتمدت جيلبر على دعاوى الصدق التي وضعها هابرماس كقواعد يمكن بواسطتها الاتفاق على المعنى بين المرسل والمستقبل في اتصال ما[١٣]. وتشرح جيلبر المقصود بدعاوى الصدق بأن المتكلم يقدم في سياق عملية الاتصال دعاوى تتعلق بحقيقة العالم الموضوعي الذي يقدمه، وصحة المعايير والقيم البين-شخصية التي يمثلها، وأخيرا إخلاصه الذاتي. وفي كل تلفظ، تقدّم هذه الدعاوى متزامنة. ويؤدي فهم الدعاوى الثلاث وتقييمها إلى فهم التلفظ وتقييمه.

يستطيع السامع، وفقا لجيلبر، تقييم الفعل الكلامي عن طريق رفض أو قبول هذه الدعاوى الثلاث، وفقا لما يأتي:

أولاً: يستطيع السامع تقييم الفعل الكلامي من حيث 'حقيقيته'؛ بمعنى طبيعة تمثيل العالم الذي يمكن للمتكلم والسامع التشارك فيه. وهو ما يمثل وضعا ما في عالم موضوعي؛ أي العالم حولنا. ويتم اختبار دعوى الحقيقية عن طريق الفحص التجريبي للعالم الذي يقدمه المتكلم.

ثانياً: يمكن أن يقيّم الحدث التواصلي من حيث 'صحته'؛ بمعنى أن المتكلم والسامع يتفقان على معايير وقيم مشتركة ومتعارف عليها فيما بينهما. تقوم هذه المعايير والقيم بتأسيس العلاقة البين-شخصية، والمحافظة عليها. ويمكن تقييم صحة هذه المعايير والقيم استنادا إلى ما إذا كانت هذه المعايير والقيم توجد بالفعل في المجتمع الذي ينسبها المتكلم (بشكل ضمني) إليه أم لا، أو استنادا إلى ما إذا كانت هذه القيم والمعايير مناسبة في إطار العالم الحقيقي الذي يحدث فيه التلفظ أم لا.

ثالثاً: يمكن أن يقيّم فعل التواصل استنادا إلى كونه 'صادقا' أو 'مخلصا'؛ بمعنى أن المتكلم يمثل Repr-sent ما يقصده. وفي هذه الحالة توضع ذاتية المتكلم (مشاعره ومقاصده ورغباته) في الحسبان. ووفقا لجيلبر فإن هذا المستوى هو الأصعب في تقييمه؛ لأنه ينطوي على تقييم للمقصد الظاهر للمتكلم. ويمكن أن ينجز هذا التقييم عن طريق التحري عما إذا كان المتكلم والسامع قادرَين على تأسيس ثقة متبادلة فيما يتعلق بالإخلاص الذاتي للمتكلم، أو عن طريق فحص اتساق سلوكيات المتكلم.

وفقاً لنموذج هابرماس في التواصل فإن كل أفعال الكلام التي تستهدف الوصول إلى الفهم يمكن أن تُقبل أو تُرفض استنادا إلى الدعاوى الثلاث السابقة الذكر. وترى جيلبر أن هذه الدعاوى تقدم إطارا يمكن من خلاله تقييم ما يعنيه المرء حين ينتج تلفظاً ما[١٤]. كما أنها تقدم في الوقت ذاته إطارا يمكن من خلاله تحديد الأخطاء التي توجد في تلفظ ما وإدراكها وتصحيحها؛ نظرا لأن الحوار حول دعاوى الصدق يسمح للمشاركين فيه أن يختبروا معنى التلفظات. كما يتيح لهم الاستجابة لفهمهم لمعنى تلفظ ما عن طريق تقديم دعاوى الصدق الخاصة بهم. إضافة إلى ذلك، قد يؤدي اختبار دعاوى الصدق إلى تكييف المتكلمين لدعاواهم عقب التلفظات، في حال ما أصبحوا مقتنعين بذلك بواسطة دعاوى المشاركين الآخرين. وبهذه الطريقة يستطيع المشاركون الدخول إلى 'الخطاب' أي الدخول في نقاش متصل يمكن من خلاله تحقيق اتفاق حول دعاوى الصدق الصادرة.

استنادا إلى ما سبق تقترح جيلبر أنه يمكن استخدام إطار دعاوى الصدق الذي يقترحه هابرماس بطريقتين: ١- يوفر تحليل دعاوى الصدق التي يقدمها المتكلم استبصارات تتعلق بمعنى أفعال اللغة وأفعال الكلام

الماقتة. -٢ يمكن أن يُستخدم تحليل دعاوى الصدق في تأسيس إطار لتطوير استجابة اتصالية مناسبة تقاوم كلام المقت؛ بحيث يمكن استخدامه في تطوير نظام من الحجاج المؤسّس institualized argumentation، وهي عملية يستطيع من خلالها ضحايا فعل الكلام الماقت تقديم دعاوى الصدق الخاصة بهم استجابة للمتكلم الماقت. ووفقا لهذا النموذج، فإن دعاوى الصدق المقدمة من خلال تلفظ المتكلم الماقت يمكن فهمها، كما أن استجابة السامع لفعل الكلام الماقت يمكن توليدها. ولأن هذه الاستجابة تُنتَج في سياق اجتماعي، يمكن أن يشجعها أو يقمعها، تولدت الحاجة إلى سياسة تشريعية تساعد ضحايا كلام المقت كي يتمكنوا من إنتاج دعاوى صلاحية بديلة تستهدف مناقضة الدعاوى التي قدمها المتكلم الماقت. ويتحقق ذلك عن طريق توفير استجابة مساندة لهؤلاء الذين يسعون لمواجهة ومقاومة تأثيرات أفعال كلام المقت؛ أي تعزيز قدرة المواطنين على ومواجهة تأثير تلفظ ما، والتمييز الذي ينطوي عليه. وأعطت أمثلة لهذه السياسات الاجتماعية مثل تفعيل حق النشر التفنيدي سواء في الصحف أم في غيرها من وسائل الإعلام، والاحتجاجات الجماعية في البيئات التي يُمارس فيها كلام المقت، والمقاضاة القانونية لأفعال التمييز التي تُمارس داخل المؤسسات..إلخ.

يمكن من ثم إيجاز الخطوات التي تقدمها مقاربة جيلبر لمقاومة كلام المقت في، أولاً: تدعيم قدرة الأفراد على معرفة ما إذا كان خطاب ما هو خطاب مقت أم لا، وذلك من خلال تطبيق دعاوى الصدق التي وضعها هابرماس كمحدد للاتصال الحر. ثانياً: التعريف بجملة الآثار التي يُحدثها كلام المقت أو يسعى لإحداثها. ثالثاً: تطبيق سياسة، تشريعية بالأساس، توفر لمن يخضع لكلام المقت سبلاً يدعمها القانون، يستطيع من خلالها تقديم كلام مضاد.

يشترك مقترح جيلبر مع المقاربات الأخرى في أسبقية الوعي بالخطاب السلطوي، وهو هنا كلام المقت. وتنفرد باستنادها إلى دعاوى الصدق كمعيار للتمييز بين الخطاب السلطوي والخطاب غير السلطوي وفي محاولتها تدعيم حق المخاطَبين، تشريعيا واجتماعيا، في النفاذ إلى مصادر الخطاب وإنجاز خطابات بديلة؛ أي تهيئة الفضاء المناسب لإنتاج كلام مضاد.

ثمة خصوصية لكلام المقت الذي تدرسه جيلبر؛ فهو أحد الخطابات التي تمارس إقصاءً ظاهراً وليس تضليلاً. فخطابات المقت لا تُقنِّع نفسها؛ بل ربما يتوقف إنجازها لوظيفتها الأساسية؛ أعني التمييز والإقصاء، على وضوح رسالتها ومباشرتها، وجلاء مقصدها وضيق أفق تأويلها. وعلى خلاف ذلك، تتكئ معظم الخطابات السلطوية الأخرى على خفاء المقصد، وغموض الرسالة، وانفتاح أفق التأويل؛ فالخطابات السياسية والإعلامية والدينية... تستهدف التحكم في وعي المخاطَب وقيمه وسلوكياته، وقد تستخدِم في بعض الأحيان التضليل والخداع لتحقيق ذلك. وفي حين يؤسس كلام المقت حالة الفصل التام بين منتج الخطاب والمخاطَبين به، تؤسس الخطابات الأخرى حالة إدماج تستهدف تقديم قناعات المتكلم بوصفها قناعات للمخاطب، والتوحيد بينهما.

رابعاً: بلاغة المخاطَب

وهي مقاربة في طور التشكل، تمثل في الأساس توجها مقترحا للبحث في إطار البلاغة العربية. وقد قام عبد اللطيف (٢٠٠٥) بصياغة أطرها النظرية، وتقديم نموذج تطبيقي.

تفترض بلاغة المخاطَب أن الخطابات البلاغية الجماهيرية هي خطابات توظف اللغة لتحقيق أغراض بلاغية هي إقناع المخاطَب (الجمهور)، والتأثير فيه. هذا الإقناع والتأثير قد يستهدف تمكين منشئي الخطاب أو المستفيدين من هذا الخطاب من السيطرة والهيمنة على المخاطَب، وهو ما يعني أن منشئي هذا الخطاب يستخدمون اللغة بكيفيات معينة، قد تتضمن التضليل والخداع، كي يتمكنوا من تحقيق السيطرة والهيمنة على المخاطَب؛ أي التحكم في صياغة نسق معتقداته واتجاهاته وسلوكياته بما يجعله يعتقد ويتجه ويسلك

وفقا لمصلحة منشئي الخطاب التي ربما تتعارض مع مصالح المخاطَب ذاته.

يتم إنتاج الخطابات البلاغية الجماهيرية واستهلاكها في إطار عملية اتصال يمثل المخاطَب طرفا فاعلا فيها. وتتبنى بلاغة المخاطَب بعض التصورات (فيسك ١٩٨٩) التي ترى أن المخاطَب ليس طرفا سلبيا في هذه العملية؛ فهو ليس مجرد 'مستقبل' لنص المتكلم. فبالإضافة إلى قيام المخاطَب بعملية إنتاج معنى نص المتكلم عن طريق التأويل والتفسير فإنه يستطيع أن يُدخل تغييرات جوهرية على الرسالة ذاتها من خلال استجاباته لها؛ حيث إن الاستجابات الآنية للمخاطب والمتمثلة في رد الفعل والتغذية الرجعية، والخطابات المتزامنة..إلخ تؤثر في الطريقة التي يبني بها المتكلم إستراتيجية خطابه. ومن ثم فإن المخاطَب الذي يدرك قدرة استجابته على تعديل خطاب المتكلم، ويمتلك قدرة على التمييز بين خطاب سلطوي يستهدف السيطرة عليه وخطاب غير سلطوي يستهدف تحريره- يستطيع بواسطة تطوير وتفعيل استجاباته أن يقاوم خطاب سلطوي. وتنطوي هذه المقاومة على نقد خطاب المتكلم بما يمكّن من نقله من دائرة اليقين إلى الاحتمال، من دائرة التسليم المطلق إلى دائرة المساءلة، من دائرة حرية التأثير إلى دائرة البحث في الأغراض والمصالح. والاستجابة التي تنجح في فعل المقاومة يسميها الباحث 'استجابة بلاغية'. ويستطيع المخاطَبون، الذين يمثلون وفق تصور جيدن (نقلا عن ويلسون ٢٠٠١) فواعل اجتماعيين قادرين على الاختيار مهما كانت قيود الظروف، توظيف بلاغة المخاطَب في تحسين قدرتهم على الاختيار وتطوير قدرتهم على الفعل.

لبلاغة المخاطَب اهتمامان أساسيان؛ الأول بيداغوجي والثاني أكاديمي. يعد الاهتمام الأول امتدادا للتصورات التقليدية للبلاغة (الإنشائية) بوصفها مهارة إنتاج الكلام البليغ، ولعلم البلاغة بوصفه العلم الذي يحدد هذه المهارات ويمرن على ممارستها، وللمادة البلاغية بوصفها النصوص التي يرى البلاغيون أنها بليغة. وقد حددت البلاغة الإنشائية المهارات البلاغية بأنها مهارة المتكلم، وحددت المتكلم البليغ بأنه القادر على الوصول إلى أهدافه عبر أفضل استخدام للغة. ومن ثم انشغلت بتطوير قدرات المتكلم على توظيف اللغة بهدف التحكم في المخاطَب. أما بلاغة المخاطَب فإنها تعيد تعريف المهارة البلاغية بأنها مهارة الاستخدام غير السلطوي للغة ومهارة إنتاج استجابات بليغة. وتعرف البلاغة بأنها العلم الذي يقوم بتحديد مهارات إنتاج الخطاب غير السلطوي ويمرن على ممارستها ويحدد خصائص الخطاب السلطوي ويمرن على مقاومته، وتعرف المتكلم البليغ بأنه من يقوم بإنتاج خطاب غير سلطوي، والمخاطَب البليغ بأنه من يقوم بإنتاج استجابات بليغة، أي مقاوِمَة للخطاب السلطوي.

تختلف بلاغة المخاطَب عن المقاربات المعرفية التي تتخذ من مقاومة الخطاب السلطوي هدفا لها في إنها: -١ تتخذ من طبيعة الاستجابات البلاغية الفعلية والمحتملة للمخاطَب الذي يتلقى خطابا بلاغيا عاما موضوعا ومادة لدراستها. -٢ تحاول أن تطور مقاربة خاصة لدراسة هذه الاستجابات تستفيد فيها من علوم أخرى مثل علم النفس والأنثربولوجيا. -٣ أنها ممارسة موجهة، بشكل أساسي، للمخاطب، أي المواطن العادي الذي يتعرض للخطابات الجماهيرية، وليس للمتخصصين.

ولعل أهم ما تختص به بلاغة المخاطَب هو أنها تتخذ من استجابة المخاطَب مدخلا لدراسة العلاقة بين الخطاب والسلطة. فالخطاب السلطوي، لا يُحدّد في ذاته فحسب، بل من خلال الآثار التي يُحدثها في استجابة المخاطَب بشكل أساس؛ أي أن القيود والمحددات التي قد تفرضها الظواهر اللغوية على استجابة المخاطَب تُعتبر معيارا لتحديد ما هو سلطوي. كما أن السلطة لا تتجلّى في اللغة فحسب، بل في طبيعة استجابات مستهلكيها بالدرجة الأولى. والسلطة لا تمارس عبر اللغة فحسب، بل عبر الاستجابات الموجهة التي تتعاضد معها. وأخيرا فإن مقاومة الخطاب السلطوي لا تكون بتعريته فحسب،

بل بإجهاض قدرته على التحكم في استجابات مستهلكيه، وتعرية الاستجابات المتواطئة معه. ومن ثم فإن نجاح خطاب سلطوي ما في تحقيق وظائفه، يُقاس أساسا بقدرته على السيطرة على استجابات مستهلكيه.

خاتمة

إذا كان الوعي سابقاً على الفعل، كما يقول هربرت ماركيوز (١٩٦٩)، فإن الوعي هو شرط الفعل. ومن ثمّ فإن كل مقاربة تستهدف إكساب البشر وعيا بالسلطة التي قد يمارسها خطاب ما، أو بالطريقة التي يكون بها خطاب ما خطابًا سلطويًا هي مقاربة مقاومة للخطاب السلطوي. لكن عنوان البحث يشي بالتمييز بين مقاربات تتخذ من التوعية بطبيعة الخطاب السلطوي ووظائفه موضوعا وغاية لها، ومقاربات أخرى تتخذ من الفعل الذي يمكن أن يواجه الخطاب السلطوي ويقاومه موضوعا وغاية لها. وهذا صحيح. فالعرض السابق يكشف عن وجود نوعين من المقاربات التي تُعنى بمقاومة الخطاب السلطوي؛ الأول: يتضمن المقاربات التي تحصر عملها في نقد الخطابات السلطوية، أي الكشف عن الكيفية التي تنتج بها هذه الخطابات السلطة وتحافظ عليها. مثل مقاربتي التحليل النقدي للخطاب والبلاغة النقدية. والثاني: يتضمن مقاربات تُعنى بتفعيل قدرة المستهدف بالخطاب السلطوي على مقاومة الخطابات السلطوية. وذلك إما بتدعيم حقه، تشريعيا واجتماعيا، في الكلام المضاد، كما في طرح كاثرين جيلبر في (٢٠٠٢). أو تدعيم قدرته على تقديم استجابات بلاغية مقاومة في سياق التلقي نفسه، وتدعيم قدرته على تقديم خطاب غير سلطوي حين يُصبح متكلما، كما في طرح عبد اللطيف (٢٠٠٧).

ومع ذلك فإن هذا التمييز لا ينطوي على أي فصل بين النوعين، ولا ينطوي كذلك على أي حكم قيمي. فنحن أمام مقاربات يمكن أن يوجد بينها نوع من التكامل والتعاون تفرضه وحدة الهدف، واختلاف الأدوات والمنطلقات. وأستطيع القول إن مشروعا مكتملا في مقاومة الخطاب السلطوي يمكن أن ينجز بواسطة تكامل ثلاث من هذه المقاربات. حيث يوفر له التحليل النقدي للخطاب أدوات للكشف عن التأثيرات المتبادلة بين اللغة والسلطة. أما مقاربة الكلام المضاد فتمد المشروع بأساس للتمييز بين الخطاب السلطوي والخطاب غير السلطوي من ناحية، وبأساس نظري لتهيئة الفضاء الاجتماعي لممارسة خطاب بديل من ناحية أخرى. في حين توفر بلاغة المخاطَب للمشروع معرفةً بالكيفية التي يمارس بها الخطاب السلطوي سيطرته على استجابة المخاطَب، ومقترحات لتعديل وتطوير استجابة المخاطَب بهدف مقاومة الخطاب السلطوي. وكلي أمل أن يكون هذه البحث حافزا على انخراط الباحثين العرب في هذه الممارسات المعرفية، التي لا تنطوي على نبل المقصد، أو شدة الحاجة إليها فحسب، بل تفتح الباب أمام تحديات معرفية حقيقة يمكن أن تثري كل من يتصدى لمواجهتها.

الهوامش والإحالات

١- يمكن الرجوع إلى مقال ويليام أو بار(١٩٨٤)، وذلك لمزيد من التوضيح للعلاقة بين اللغة والسلطة المادية:
William M. O' Barr, "Asking the Right Question about the Language and Power", in: Kramarae et al. (eds.), *Language and Power*, London, Sage Publication, 1984.

٢- لمراجعة أطروحة بورديو حول نفي وجود خطاب سلطوي في ذاته، يمكن الرجوع إلى:
بيير بورديو، **الرمز والسلطة**، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

3- Teun A. Van Dijk, "Critical Discourse Analysis", in: D. Schiffrin D. Tannen and H.E. Hamilton (eds.). *The handbook of Discourse Analysis*. Oxford; Malden, MA. Blackwell Publishers, 2001 . p.252.

4- S. Titscher, , M. Meyer, R. Wodak and E. Fetter, *Methods of Text and Discourse Analysis*, London: SAGE Publications, 2000, p.147.

5- J. Blommaert, *Discourse: A Critical Introduction*. New York: Cambridge University Press, 2005, p.21.

6- N. Fairclough, *Language and Power.* London/ New York: Longman, 1989, p.16-17.

7- R. Wodak, "*What is Critical Discourse Analysis"*, in: R. Wodak, (ed.), *Methods of Critical Discourse Analysis*: London, Sage Publications, 2002, p.2.

٨- ناقش ويدوسون (٢٠٠٤) بعض هذه المشكلات في كتابه "النص، والسياق، والسياق النصي"، الذي يمثل أكثر المراجعات شمولا في انتقادها للتحليل النقدي للخطاب.

9- N. Fairclough, *Language and Power*, p.5.

10- R. E. McKerrow, "Critical Rhetoric in a Postmodern World", Quarterly Journal of Speech 77, 75-78, 1991, p.450.

١١- المرجع نفسه، ص ٤٥١.

12- R. E. McKerrow, "Critical Rhetoric: Theory and Praxis", Communication Monographs 56, 91-111, 1989, p.441.

13- K. Gelber, *Speaking Back: the Free Speech Versus Hate Speech Debate*, Amsterdam: Philadelphia: J. Benjamins Publishing Company, 2002, p.61.

١٤- المرجع نفسه، ص ٦٤

المصادر و المراجع

١- عبد اللطيف، عماد، «بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته». ضمن Proceedings of the 8th International Symposium on Comparative Literature "Power and the Role of the Intellectual" 22-24 November 2005. Cairo, 7-36.

2- Blommaert, J. *Discourse: A Critical Introduction*. New York: Cambridge University Press, 2005.

3- Blommaert, J. and Bulcaen C., "Critical Discourse Analysis", Annual Review of Anthropology 29, 2000.

4- Charland, M, "Finding a Horizon and Telos: The Challenge to Critical Rhetoric", Quarterly Journal of Speech; Vol. 77 Issue 1, 1991.

5- Chouliaraki, L. and Fairclough N., *Discourse in Late Modernity: Rethinking Critical Discourse Analysis*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999.

6- Fairclough, N., *Language and Power*, London/ New York: Longman, 1989.

7- Fiske, J., *Understanding Popular Culture*, London/ New York: Routledge 1989.

8- Gelber, K. *Speaking Back: the Free Speech Versus Hate Speech Debate*, Amsterdam: Philadelphia: J. Benjamins Publishing Company, 2002.

9- Hariman, R., "Critical Rhetoric and Postmodern Theory", Quarterly Journal of Speech, Vol. 77 Issue 1, 1991.

10- Jasinski, j., *Sourcebook on Rhetoric: Key Concepts in Contemporary Rhetorical Studies*, London: Thousand Oaks, Calif: Sage Publications, 2001.

11- Jørgensen, M. and Phillips L., *Discourse Analysis as Theory and Method*, London; Thousand Oaks, Calif: Sage Publications, 2002.

12- Marcuse, H., *An Essay on Liberation*, Boston: Beacon Press, 1969.

13- McKerrow, R. E., "Critical Rhetoric: Theory and Praxis", Communication Monographs 56, 1989.

14- McKerrow, R. E.. "Critical Rhetoric in a Postmodern World", Quarterly Journal of Speech 77, 1991.

15- McKerrow. R. E., "Critical Rhetoric", in: Sloane T., (Ed.), *Encyclopedia of Rhetoric*, NY: Oxford University Press, 2001.

16- O' Barr, M.W., "Asking the Right Question about the Language and Power", in: Kramarae et al. (eds.) *Language and Power*, London: Sage Publication, 1984.

17- Schiffrin, D., Tannen D. and Hamilton H. E. (eds.), *The handbook of Discourse Analysis*, Oxford: Blackwell Publishers, 2001.

21- Titscher, S., Meyer M., Wodak R. and E. Fetter, *Methods of Text and Discourse Analysis*, London: SAGE Publications, 2000.

22- Widdowson, H.G., *Text, Context, Pretext: Critical Issues in Discourse Analysis*, Oxford: Blackwell Publishing, 2004.

23- Wodak, R and Fairclaough N., "Critical Discourse Analysis", in: Van Dijk, (ed.), *Discourse Studies: a Multidisciplinary Introduction*, London: Sage Publications, 1997.

24- Wodak, R. and Meyer M. (eds.), *Methods of Critical Discourse Analysis*. London: SAGE, 2001.

25- Wodak, R. and Chilton P., (eds.), *A New Agenda in (Critical) Discourse Analysis: Theory, Methodology and Interdisciplinarity*, Amsterdam; Philadelphia: J. Benjamins, 2005.